أسباب الفشل

ويمكن القول، على ضوء حل الملابسات التي أحاطت بمسألة الأراضي والسياسات المتبعة إزاءها، ان الرفض العربي لانتقال الأراضي لليهود، قد استند في أسبابه الجوهرية، إلى رفض المشروع الصهيوني، بإقامة الوطن القومي، وإلى التمسك بوسيلة العيش الأولى، لجمهور الريف والنسبة الأكبر من جمهور المدن، أمام خطر داهم كان يتحقق بثبات. وبرز على أساس ذلك المطلب الدائم للحركة الوطنية، وهو منع انتقال الأراضي. وقد وجه هذا المطلب، في السنوات الأولى على الأقل، إلى الحكومة البريطانية التي فعلت الكثير لتشجيع حيازة اليهود على الأرض. بينما استندت مقاومته، من الجانب العربي، إلى النوازع التي يعتقد أنها تدفع الفلاح للتمسك بأرضه. واعتمد أسلوب التوعية النظرية، وشرح الخطر ومناشدة الحس الوطني. ولم تفعل الحركة الوطنية، المفتقرة، في واقع الأمر إلى الوسائل، شيئاً كثيراً، لمنع الانتقال، على الجبهة التي تملك أن تفعل فيها شيئاً، وهي بيع الأرض بيعاً، وإذا افترضنا أن بيع الملكيات العربية الكبرى قد تم قبل أن تتنبه إليه، وإذا افترضنا أنها كانت قاصرة عن مقاومة انتقال الأراضي المملوكة للدولة، فلم تتم، بمبادرات عربية، أية محاولة جادة، أو فعالة، للمساعدة على انهاض مستوى الزراعة في القرى العربية المتخلفة. كما أن البنك الذي أسسه ممولون عرب، لتشجيع المزروعات العربية، كان هزيل الامكانيات بالقياس للامكانيات المتوافرة للبنوك البريطانية واليهودية، وظل محدود النشاط، ولم يقدم إسهاماً ذا بال في منع العرب، الراغبين في تطوير مشروعاتهم، من التوجه إلى البنوك الأخرى التي كانت ترتهن أراضيهم، وتثقلهم بفوائد يتضافر وجودها مع وجود سياسة الافقار، بمظاهرها الأخرى، فتدفع العديد منهم إلى الفشل والعجز. ان عجز الحركة الوطنية عن تقديم مساعدة إيجابية دفعها نحو السلبية، وانتهى بها إلى اعتماد أسلوب تصفية من يثبت لديها، من العرب، انهم سماسرة لبيع الأرض، وأنهم باعوا أرضاً، وهو الأسلوب الذي فتح الطريق أمام استخدام التصفية، في حالات ليست نادرة، لأسباب سياسية محضة، وأوقع كثيراً من البلبلة، في صفوف الحركة الوطنية، وخلق العديد من الحزازات السياسية والعائلية.

وإذا شئنا أن نتعمق أسباب عجز الحركة الوطنية عن المساهمة الايجابية في منع حركة البيع بغير أسلوب الوعظ أو التخويف، فسنجد أن السبب الرئيسي ينطلق من طبيعتها، بصفتها حركة لحمتها الجماهير غير المقتدرة على التمويل، وقيادتها أصحاب النفوذ الاقتصادي أو الديني أو العشائري المنبثق عن الوضع الاقتصادي والديني، وهؤلاء كانوا، في فلسطين ما قبل العام ١٩٤٨، أعجز من أن يصمدوا أمام المنافسة مع البريطانيين والصهيونيين بما لدى هؤلاء الآخرين من قدرات مالية وخبرات اقتصادية متطورة، كما كانوا، بحكم مصالحهم، غير قادرين على تنظيم حركة مقاومة الشعب بأسره التي كان يتوجب، لكي تنجح، أن تتوجه إلى رأس البلاء، وهو الاستعمار البريطاني مباشرة وبغير تردد.

وتجلى عجز الحركة الوطنية هذا، أكثر ما تجلى، في شكل مواجهتها لخطر ثالث من